أخر أمل .

نجلاء سماعلي

المقدمة:

- لم أكن يومًا كاتبةً أو أدبية، ولكني لم أرد أن أكتم تلك الأفكار التي تدور في رأسي وتلك المواقف التي عشتها ورأيتها وتلك المشاعر التي تغلغل قلبي وتؤدي به دومًا للانفجار على هيئة سطور فيها كلماتٍ تعزف لحن الحياة وتقلباتها وتحدياتها وهمومها وصعابها.
- ولأن لكلٍ منا قصة في هذه الحياة المليئة بالعجائب والاختلافات، وكل منا لديه طريق يحف بالمغامرات والصعاب والتحديات حولنا هذا الطريق إلى كتاب!
- أزف لكم في هذا الكتاب المتواضع رواية خيالية عن حياة فتاة عنوان حياتها "أخر أمل" فقد كانت تعيش حياةً عاديةً روتينية إلى أن جاءت لها فرصةً عظيمةً لن تتكرر إلا مرةً في العمر ولأن لديها ما يكفي من الشجاعة والجرأة استطاعت أن تحيد الخوف والتردد جانبًا وتضرب المعتاد ضرب الحائط فتمسكت بأخر أمل! وانتفضت من أجل نفسها وأفكارها وقالت للواقع الأليم أنت لست أليمٌ بعد اليوم أنت من اليوم في يدي وفي تصرفي لأني لم أرضى يومًا بالقليل أو بما لا يرضيني بل سأصنع بنفسي حياةً جديدةً أسطرها من أجل مستقبلٍ أفضل وحياة ليست كالبقية والمعتاد...
- أنا التغيير أنا المنبع..

-

- **الفصل الأول**

-
-
-
-
-
-

•

- في عمق أحد الأرياف في أعلى قمة أحد الجبال العالية التي يمر بها الشتاء وأقوى رياحه، وقسوة برده، وأمطاره الغزيرة؛ وثلجه الذي يحبسنا لأيامٍ في كوخنا الصغير، الذي جدرانه من حجر و سقفه من قرميد وبعض الأخشاب. أقطن أنا مع أبي وإخوتي الخمسة كلهم أكبر مني سنًا إذ أنا صغيرةَ البيت، فتتكفل أختي الكبرى برعايتنا وذلك بعد ذهاب أمي من المنزل وذلك بعد ولادتي تمامًا لأن أبي يقول إنها ذهبت إلى المدينة من أجل العلاج وهي تبقى هناك إلى أن تتعافى وتعود إلينا إن شاء الله ، فأكبر أمنياتي أن أعيش مع أمي دومًا .. بل مجرد أن أراها معافة وسالمة حتى لو مر الزمن على ذهابها ولكني دومًا أتمسك بأملِ لقياها يومًا ما. لقد أصبحت أختي المسؤولة عن تربيتنا والتفقد لنا من موضع المنام ، والاهتمام والطعام مما يحضره أبي من المحصول اليومي، ولا عمل له في الريف إلا زراعة بعض بذوذ الحمص والعدس وتقطيع الخشب للتدفئة بالشتاء ، وهنا تجد الصعوبة حتى في الأكل شيءٍ غير روتيني كما هو متوارث، إذ أحيانًا يعود أبي مساءً فارغ اليدين محمل ببعض الأعشاب التي تطبخها أختي لنا طعامٍ يأكله الجميع إلا أنا لا أستطيع تحمل مذاقها المر فدائمًا كان شعور الجوع ونيسي وأنيسي في الحياة ..

- كانت معنا جدتي التي لا تكاد تقف على رجليها لتحضيرالعشاء لجدي المستلقي على الفراش منذ أربع سنوات ، إذ تجاورنا بعض الديار لإخوان أبي أو أبناء عمه إذ كلٌّ منا أُعلمه أن كل بيت يكاد أن يسقط سقفه على ساكنيه الذين هم عشراتٍ من الأطفال بمختلفِ الأعمار مع فوارقٍ قليلة في السن كل ما أعلمه أنهم كثيرون ولا أفرق من ابن ذاك ومن أخ ذاك فأحدهم ابن عمي أبي، وآخر ابن عمته، وآخر ابن عمه ، وحفيد أخيه ، فالحزن يعتري قلوبهم كظلام الليل ، والفقر يلتف حولهم كغيومٍ سوداء تحجب نور الأمل. والجهل يعصف بعقولهم كرياح عاتية يترك خلفه بذور اليأس التي تسقى وتكبر ويقطفها كل صغيرٍ يأتي على هذه الحياة؛ ويكبرون

مع عائلاتٍ لم تذوق طعم التعلم يومًا ولم تذوق أبنائهم إياه فبات الجميع كأرضٍ قاحلة لا يهطل عليها المطر و لا تشرق عليها الشمس، يغرقون في الجهل ويكبرون في الفراغ فسن اليأس عندهم هم يوم ميلادهم يترعرعون في أشياء وينتهون عند أشياء نعم هذه هي حياتنا وحياة من قبلنا ومن بعدنا.

-

- **الفصل الثاني:**

-
-
-
-
-

•

- منذ استيقاظي صباحًا ما رآه هواه إلا تلك المناظر البشعة التي تعودت عيني عليها وسئمت روحي من تكرارها واشمأز قلبي كلما تذكرت أني هنا لأني كنت من قبل هنا ولا أزال أستمر هنا.. أنها النهاية المأساوية التي هي أكبر مخاوفي أن أعيشها لأني لا دليل لي ولا أملٌ يؤدي بي لتخيل نهايةً أحسن بقليل من هذه ..

- فكلما حان وقت الغذاء أو العشاء أو كما نسميه وجبتنا الوحيدة في اليوم هروع إخوتي للصحن الوحيد الذي يبقينا أحياء على الأقل فكلما سبقوني وأكملو الطعام كنت أخرجُ منزعجةً وأشقُ طريقًا لا أعرف عوالمها أبكي من شدة الجوع؛ أم أبكي على قلة حيلتي أمام إخوتي، أم على وضعنا المزري المستمر إلى حين لن ينتهي؟ وإلى أين يسري؟ إذ أمشي تحت أشعة تلك الشمس الحارّة، أسمع صوت عربةٍ وصوتها يقترب مني أكثر فأكثر واتضحت الرؤية أنها سيارةٌ بيضاء كبيرةٌ تأتي من بعيد إذ تقترب مني أكثر وأكثر يا إلهي من هؤلاء؟

- إن ديارنا لا يزورها بشر ولا حيوان.. هؤلاء حتمًا لصوص يريدون خطفي أنا وإخوتي فخطفت أنفاسي ، ورحت أركض عائدةً إلى بيتنا خوفًا منهم ولكنهم لا زالوا يقتربون إلى أن لحقو بي وتوقفو عندي ونزلو من تلك السيارة نساءً ورجال فالبعض منهم يرتدي مأزرٍ أبيض، وأرادوا التحدث معي لكنني من هول الموقف لم أعد أستطيع الكلام فأمسكو بي وطمنوني أنهم لن يلحقو بي أي أذى بل إنهم فريقٍ طبي يزور الدوائر والأماكن التي يعجز الناس عن زيارة الطبيب لفحصهم وتداويهم.

- فقبلت بعد ذلك اصطحابهم إلى منزلنا ، حتى بدؤوا يفحصون والداي وإخوتي وجدي وجدتي ومن ثم تحركوا لزيارة منازل العشيرة لقد كانوا أناسٍ طيبين بكل بساطة وجدًا لُطَفَى في تعاملهم إذ بقيتُ برفقتهم طوال النهار أراهم يفعلون أشياء لم أراها أبدًا في حياتي بل واستمتعت بتأمل عملهم ووقفت إلى جانبهم وساعدتهم

وعلموني أشياء كثيرة وألتمستُ فيهم حب المساعدة والخير يا لها من مهنةٌ نبيلة يداون جراحنا التي لها سنين، بل ويتفقدون أحوالنا ونحن من لا نتفقد أنفسنا .. رأيت فيهم حبًا واهتمامًا لم أراه لنفسي أو لأحدٍ في حياتي.

- فعجبت جدًا بهم وأحببتهم في بضعِ ساعاتٍ أمضوا بها معنا أحسست أني تعلقت بهم، وأني شبيهاً بهم، وأني منهم، ولسوف أنتمي إليهم، ثم قلت لكني بنت الدوائر التي انحرمت من التعليم والعلم، فلست متعلمةً ولا مثقفةً وليس لي مالٌ ولا جاه لأكون كمثلهم، أو معهم بل سيكملون عملهم ويذهبون ، وأبقى أنا هنا.
- هل سأبقى هنا حقًا؟ وهل للأبد؟
- هل أصبحت مشاعري هكذا جياشة منذ قدومهم دون معنى؟
- هل أُعجبت بهم وتعلقت بهم هكذا دون حكمة؟
- هل لا يمكنني أن أغير شيء؟
- مالذي سأخسره ، وأنا التي لا تملك أي شيء لأخسره أصلًا ؟
- ومع حلول المساء تفقد الأطباء جميع البيوت المجاورة وأكملو عملهم، وبدؤوا بتجهيز أدواتهم ليرحلوا نحو أسفارهم، إذ بهم يركبون السيارة صرخت فجأة؛
- توقفوا لقد نسيتهم شيئًا ما يخصكم
- قالوا: ماذا؟
- قلت: أنا..
- لقد نسيتموني أنا ..
- أنا أخصكم،
- أنا أنتمي إليكم،

- أنا منكم
- وأنا سأذهب معكم اليوم لا محال.
- تفاجئ الجميع ..
- وقالو لي أنه لا يمكنهم أخذي وأن يجب أن أبقى هنا مع عائلتي،
- وأنهم سيزوروننا مرةً أخرى، ولن ينسوني،
- إذ رفض الجميع الفكرة حتى أن أهلي لم يسألوني عن سبب تصرفي هذا ...
- ولم يبادر أحدٌ منهم ليسألني عن سبب تصرفي،
- رفض الجميع الفكرة ماعدا ..
- ماعدا طبيبٌ واحد!
- كان يقال له: الدكتور صلاح الدين
- تقدم إلي وقال: هل أنتِ جادة؟
- هل أنتِ مدركةٌ لما تقولين؟
- قلت: نعم .. وتمامًا أعلم ماذا أريد؟
- فصاح ماذا تريدين؟
- قلت: أريد حياةً أفضل لا أريد أن أكمل حياتي هنا في هذا الريف،
- أكبر عائقٍ للجوع والجهل ثم أتزوج وأنجبُ أطفالًا وتربيتهم ثم أنتظر موتي ..
- لا أريد أن أبقى في هذه العزلة ..
- أريد أن اكتشف العالم وماهي الحياة؟ وما تخبئه عنا الأرياف وتحرمنا من الحياة الحقيقية أنا لا أستحق هذه العيشة أستحق حياةً

أفضل ، أتعلم وأدرس فيها ثم أعمل وأبقى أُصارع من أجل أحلامي وتحقيق رغباتي،

- أنتم أملي الوحيد في أن أحقق ما أسمو إليه أرجوك خذني معك لا تتركني أغرق مثلما غرقت أمي وسيغرق إخوتي وجميع من هنا.
- وبعد بُرهةٍ ألتفتَ إليَّ صلاح الدين وتأمل جيدًا البريق الذي يشع من عيناي الصغيرتين ثم قال: أيتها الصغيرة لقد أصبحت من الآن كبيرة لأنك مسؤولةً عن كلامك هذا مدى حياتك.

-

- **الفصل الثالث:**

-
-
-
-
-
-

-

- أشرقت الشمس ورنت الأجراس وألتفت حولنا الآنسات يوقظنا من النوم إنها بداية يومٍ جديد إنه واحد من أجمل أيامي أنه يوم الثانوية .

- فكيف لا أستيقظ بنشاط وأسرع لاستبدال ملابسي بالزي المدرسي الأزرق إلا أنه لوني المفضل وأتناولُ فطوري بسرعةٍ وأكون أول من تركب الحافلة التي تنقلنا من الميتم إلى الثانوية المجاورة ؛

- أنا وأصدقائي وزملائي في الميتم إذ تغيرت حياتي هنا منذ أن رحلت مع مجموعة الأطباء الذين زاروا قريتنا عندما وافق الطبيب صلاح الدين على اصطحابي وأدخلني إلى هذا الميتم قائلًا أن هذا أكبر ما يستطيع أن يقدمه لي لقد شكرته كثيرًا لقد فعل لي أكبر معروف في حياتي لقد نقلني من عالمي إلى أخر..وبل ساهم في إحيائي من جديد إنها هنا الحياة؛ فأنا هنا منذ أن كنت في التاسعة من عمري واليوم أنا في الثانوية لقد تغيرت حياتي كثيرًا بعد أن كنت أعيش الجمود والركود، وحياةٍ بلا هدف بلا سبب بلا معنى! الآن أنا أعيش كل يومٍ تجاربٍ مختلفة؛ لقد تعلمت الكثير وما زال لي ما سوف أتعلمه لقد قادني إلى بداية طريقي الجديد خطىً جديدة ، لم أكن أعرف نهاية الطريق، ماذا بها وما ستكون، وبالخطوة القادمة الأقرب لم أكن أدري منها شيئًا رغم ذلك أصررت على الذهاب، وتركت كل حياتي القديمة، عائلتي، وذكرياتي، وطفولتي، فأقدمت وأردت أن أخلق من المستحيل أملًا ومن العدم شيئًا.. ووثقت بنفسي بأنني أملك أحلامًا وما سكنتُ مخيلتي إلا ولدي القدرة على تحقيقها وذلك طبعًا بعد توفيقٍ من الله عز وجل.

الفصل الرابع:

يحل الربيع وتحل معه بعض الضحكات على وجوه عائلتي وأهل ريفنا، تعم البهجة وتسود حركةٍ غير طبيعية وكأن مملكةً من النمل حُررت من حِجرها تحت الأرض هكذا نحن وكل سكان الريف إذ نغدو لجمع حصادنا الذي زرعناه شتاءًا ونستطيع أن نفرح حاليًا لأننا وأخيرًا لم نعد نحمل هم ماذا نأكل؟

كم يومًا سنظل جائعين؟ وإلى متى؟ وأين سسنجد طعاما..؟!

وأخيرًا نستطيع أن نخرج كل يومٍ ونلعب في حقول القمح لعبة الاختفاء ويهب الجميع لقطف أزهار البابونج لصنع الأساور واللعب، أما أنا فكنت أقطفها وأذهبُ بعيدًا عن تجمع الناس أختلي بنفسي وألعب لعبة الحظ بها ..

هل سأعيش هنا للأبد؟

هل سأموت هنا أم في مكانٌ أخر؟

هل سيأتي زمانٌ وأجدَ فيه دائمًا ما أكله؟ هل سيأتي يومًا وتشرق الحياة في ريفنا؟

هل هناك أملٌ أن تتغير حياتي؟

هل ستشرقُ الشمس يومًا على ريفنا ويهطل مطر الأمل ويسقي أرواحنا اليائسة؛ ويغذيها ويسقيها لتنمو وتزهر و تخرج من تحت الأرض لترى الحياة الحقيقية لأول مرة؟!..

دائمًا ما ... كنت أتذكر هذه الذكرى بل الذكرى الوحيدة والجميلة من تلك الحقبة "ذكرى فصل الربيع" وأنا أتمشى على حافة النهر وأحكيها دومًا لـ مصعب إنه صديقي المفضل في الميتم والمدرسة، إذ تعرفت عليه منذ أولِ يومٍ لي في التاسعة من عمري وها نحن ندرس في نفس الصف ونقضي معظمُ أوقاتنا مع بعض رغم أنه يتعبني قليلًا بدفع كرسيه المتحرك، لكن أنسى كل هذا التعب بمجرد أن يصبح سعيدًا وينسى

غضبه وحزنه، لسخرية الزملاء منه بسبب تلقيه صعوبات في الدراسة وعدم قدرته على المشي كسائر البشر.

لقد كان هذا التنمر يلحقني أنا أيضًا!

فقد كنت فتاةٌ جميلةٌ جدًا وذكية؛

لطالما حزتُ على المرتبة الأولى في الثانوية وكان الجميع يريد صحبتي والتقرب مني، وخاصةً زملائي في الصف ولكني كنت دائمًا أريد الاحتفاظ بصديقٍ واحد، بل روحٌ واحدةٌ تفهمني وتحس بي، لطالما أكتفيت بصحبة مصعب برغم لوم الناس لي عليه، ورغم سخريتهم، ونبذهم له، كنت أنا أحتويه عن كل هذا العالم القاسي، وكان العالم يراه بعين طبعهم وأنا أراه بعين طبعي المختلفةُ عنهم، كان رفيقي وصديقي وسندي الوحيد في هذا العالم لأن كلانا كان وحيدًا ويقال إذا تلاقتِ الأشباهُ تحابت!

الفصل الخامس والأخير:

وأنا أتصفح مذكراتي التي كتبتها قبل عشر سنوات عندما كنت في الثانوية وكانت عام البكالوريوس العام الذي يتحدد فيه مصيرنا بعد الإمتحان النهائي وأنا أُحضر له كنت أرَ نصب عيني هدفًا واحدًا .. هو أن أتجاوز هذا الإمتحان وأكمل دراستي العليا في مجال الحقوق لأصبح محاميةً لأطفالِ هذا الميتم أدافع عن حقوق من أُخذت منه، وأخذت الحياة حقه، وتخلى عنه والديه هنا ولكنني وعدت نفسي أن لا أتخلى عن أحدٍ يحتاجني أو يحتاج المساعدة ، ولن أترك هذا الميتم أبدًا لأنه أصبح جزءًا مني، بل أصبح الجزء الأكبر من حياتي والاهتمام الأول لأن حياتي ابتدأت من اليوم الذي جئتُ فيه إلى هنا ولدت من جديد بثت في روح لم تكن تعرف لا الاستسلام ولا اليأس، روحٌ تسعى وتعملُ لا تكلُ ولا تمل، و من أجل أحلامها وطموحها..

وها أنا اليوم في مكتبي أقوم بمهامي كمديرةً لهذا الميتم؛ محاميةٌ لأطفالهم بعد أن تخلت لي أمي عن منصبها لي في إدارة الميتم..

نعم بعد أن اكتشفت كل الأوراق علمت أن أمي لم تذهب للمدينة للعلاج، ولا تركتنا من أجل مرضها بل تركتنا من أجل نفسها .. من أجل الحياة؛

وكما أراه أنا..!

وأسستُ حياةً جديدةً إلى أن أصبحتُ مديرة الميتم، ولأن كل شيءٍ مخطط له في هذه الحياة كان لها الدور في إرسال مجموعة الأطباء لتفقد قريتنا وكان الحال بأن الدكتور صلاح الدين يعلم أني ٱبنتها وأراد إسداء المعروف لها بٱحضاري إليها ولقاء الأم وابنتها التي تركتها رضيعةً ولا تتذكر حتى ملامحها .. ولأن شعور التخلي صعب جدًا خاصةً عندما يتعلق الأمر بشخصٍ تُحبه! تعاهدتُ أنا وزوجي مصعب أن لا نترك أي أحدٍ من هذا الميتم كما تُركنا نحن!

فبعد العمل أذهب إلى شباك الغرفة وأتأمل منظر السماء الجميلة وأرَ أطفالي يلعبون مع بعضهم وهم سعداء أُحاول دائمًا ... جاهدةً توفير لهم ما يجعلهم لا يحسون بالنقص الذي أحسته منذ الصغر ولم أستطيع

التخلص من وجوده في حياتي ، ولطالما أردت أن أكمله وحاولت كثيرًا ولكني دائمًا لا أجد القطعة الأخيرة المناسبة لتكتمل الحياة في نظري!

الخاتمة:

"أخر أمل" ربما بعد محاولاتٍ كثيرة من الإنسان فيما يسعى إليه ييأس وينهار ويحبط ويوقف محاولاته ومبادراته ولكنه لا يعلم أنه ربما الخير في الخطوة القادمة التي يأس منها وربما تكون آخر خطوة هي أخر أمل ..

أخر أملٍ لأفضلُ بداية ، لحياةٍ أفضل .. للحياة الحقيقية

ولأن فرص الحياة لا تنتهي إلا بعد صعود الروح إلى خالقها... يجب أن نعيش حياتنا على هذا المبدأ

"هناك نفسٌ وهناك أمل" يجب أن لا نيأس أبدًا حتى عند الفرصة الأخيرة لأنها ربما تكون أولُ فرصةٍ لبداية أجمل.

تمت بحمدلله